الباب الأول

من عالم النور إلى بحر الظلمات

"يا أيها الناس، إن الله عز وجل يقول لكم:
مروا بالمعروف وانهوا عن المنكر قبل أن تدعوني
فلا أجيبكم، وتستنصروني فلا أنصركم، وتسألوني
فلا أعطيكم".

حديث شريف

في الصفحات التالية جولة عجلى في فروع من التاريخ، تعبر بها وقائع تحيرناها، عن أسباب الفساد الذي أصاب المسلمين من سقطات الولاة وفرطات الجماعة وأعضاء أهل العلم، يتضح منها للناس أن الوسيلة لصلاح بالهم هي العودة إلى الأمر الأول: أمر النبي ﷺ وصحبه، حيث الشريعة مطبقة يعضون عليها بالنواجذ، ولا ينسون نصيبهم من الدنيا. ولما نسى المسلمون الله أنساهم أنفسهم، وعلا شأن الشعوبيين الفرس والأتراك، وأوشك المجتمع الإسلامي أن يكون غير إسلامي!

وتساءل المسلمون متى نصر الله:؟ وكان الجواب ظهور أحمد بن تيمية في القرن السابع ومحمد ابن عبد الوهاب في القرن الثاني عشر للهجرة.

والكلام في هذا الباب فصول:

الأول: خاص بمسيرة التاريخ كما تتابعت بها القرون حتى كُبكب المسلمون في أمور يكفرها دينهم أو يبدعها، تُعطل الدأب وتُطفئ شعلة الفكر وتربطه في داخل حلقة مفرغة من الوهم الذي يقتل الأمم.

والثاني: خاص بالفلسفات التي ينتسب بعها بعض للتصوف. والصوفية الصلحاء منها براء. وكيف أدخلت على الإسلام وأوقفت ازدهار مجتمعات المسلمين.

والثالث: خاص بانتصار ابن تيمية ومدرسته للمنهج السلفي وانتصاره به.

الفصل الأول

من خير القرون إلى ظهور البدع

"خير القرون قرنى ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم"

حديث شريف

كانت السنوات الأولى من عمر الإسلام سنوات تكوين وتمكين بالعقيدة الصحيحة والعمل الصالح واجتماع الكلمة، وانطلاق العرب بالإسلام خارج جزيرتهم كانتشار الضوء بعد انفجار الفجر في كل الأرجاء.

وخلف الصديق صاحبه ﷺ. ثم استخلف الفاروق. واختار أهل الشورى عثمان بعد عمر فبايعه المسلمون.

ثم بايعوا عليًا بعد مقتل عثمان سنة ٣٥ إلا كبراء بني أمية وعلى رأسهم معاوية في الشام وثلة ممن شايعوهم من الصحابة.

ودب دبيب الفرقة، فدارت رحى الحرب بين علي وبين طلحة والزبير في موقعة (الجمل) وأظفره الله بهما، فصفح الصفح الجميل، ثم تلاقي عليٌّ وجندُ الشام في موقعة (صفين). وأدرك معاوية وبنو أمية معه أنهم منهزمون. فرفعوا المصاحف على شبا الرماح طالبين (تحكيم كتاب الله).

ولم يكن لأمير المؤمنين معدًى عن أن يقبل التحكيم، فخرج عليه من جيشه (الخوارج). وهم يسمون كذلك: إما لخروجهم في سبيل الله كما وهموا، وإما للخروج على الجماعة كما فهم المسلمون؛ وهزمهم أمير المؤمنين (بالنهروان)، واستشهد بطل الإسلام، في كبريات حروبه، بطعنة (خارجي) في المسجد سنة ٤٠.

وبايع الناس بعده ابنه الحسن، فلبث أشهرًا، ثم تصالح هو ومعاوية، وقامت دولة بني أمية سنة ٤١ لتبقى تسعين عامًا ونيفًا حتى سنة ١٣٢ (٦٦٩ – ٧٤٩م).

أنسى معاوية الناس بكيسه وسخائه خروجه على أمير المؤمنين وقسوته على شيعته، فلم يستعمل الحسام كلما أجزأه الكلام، وقد طالما أجزأه. وكان نضيج الرأي يفطن للمأتي البعيد

للخطر، فشغل جيوش المسلمين بالجهاد، فكان فيها الحسين بن علي والعبادلة [1] وصحابة الرسول ﷺ. وكان المسلمون ينتصرون.

وكانت سنواته العشرون سنوات رخاء وفتوح في البر والبحر وفي أنفس الناس. وراح يأسو الجراح، فلم يأكل كبدَه الضغنُ. وأنزل الله في قلبه السكينة، وانتقلت من قلبه إلى الجمهور، وكانت نقلة الأمة من أعاصير الفن إلى عصر السلام مأثرته.

وربما أجزأ عن الشروح أو فلسفة التاريخ إشهاد الوقائع. وقد يكفي منها واقعة واحدة من حياته اليومية توضح فلسفته وطريقته أو سياسته. والوقائع أشياء وأشخاص تتكلم. والناس لها أسمع وأبصر:

روى جلساؤه في دمشق ما قالته (الزرقاء بنت عدي) أيام كانت تحرض الكتائب من جيش أهل الكوفة فأمر الوالي أن يسيرها إليه وأن يكرمها.. حتى إذا جاءته قال: كيف حالك يا خالة وكيف مسيرك إلينا؟ قالت: خير مسير. قال: ما حملك على أن تحرضي علينا؟ قالت يا أمير المؤمنين: قد مات الرأس وبتر الذنب؛ والدهر ذو غير، ومن تفكر أبصر، والأمر يحدث بعده الأمر.

قال: هل تحفظين ما قلت؟ قالت: لا

قال: لله أبوك! لقد سمعتك تقولين:

(أيها الناس، إن المصباح لا يضيء في الشمس، وإن الكواكب لا تضيء مع القمر، وإن البغل لا يسبق الفرس، ولا يقطع الحديد إلا الحديد.. إنه لا يستوي المحق والمبطل. أفمن كان مؤمنًا كمن كان فاسقًا. لا يستوون. فالنزال النزال، والصبر الصبر، ألا وإن خضاب النساء الحناء وخضاب الرجال الدماء!).

يا زرقاء، أليس هذا تحريضك؟

قالت: لقد كان ذلك.

قال: لقد شاركت عليًا في دم سفكه.

---

(١) جمع عبد الله. العبادلة الأربعة ابن عباس وابن عمر وابن عمرو وابن الزبير.

قالت: أحسن الله بشارتك يا أمير المؤمنين وأدم سلامتك، مثلك يبشر بخير ويسر جليسه

قال: أوقد سرك ذلك؟

قالت: والله لقد سرني وأنّى لي بتحقيقه.

قال: والله لوفاؤكم له بعد موته أعجب إليّ من حبكم له في حياته. فاذكري حاجتك.

قالت: يا أمير المؤمنين آليت على نفسي: لا أسأل أحدًا بعد عليّ حاجة.

قال: لقد أشاروا عليّ بقتلك.

قالت: لؤم من المشير ولو أطعته لشاركته.

قال: كلا، لنعفون عنك.

قالت: يا أمير المؤمنين كرم منك، ومثلك من قدر فعفا، وتجاوز عمن أساء، وأعطى من غير مسألة.

فأعطاها كسوة، وأقطعها ضيعة!

وولي بعد معاوية ابنه يزيد (٦١ – ٦٤). وفعل يزيد الأفاعيل بالمسلمين: من استشهاد الحسين بن علي في كربلاء واستشهاد ستة إخوة معه وخمسة من حفدة فاطمة. واثنين من أبناء عبد الله بن جعفر وزينب بنت علي، إلى وقعة الحرة بالمدينة سنة ٦٣ حيث استشهد (أهل بدر) في محاربة يزيد، فلم يبق على الأرض بدري واحد! إلى حرق جيشه للكعبة وهو ينسحب من حصار مكة بعد موته. وهي حوادث ثلاثة وقعت في سنوات ثلاث هي كل حكمه، أو لعنات ثلاث تنزلها السماء بدولته. وتنذر بها المسلمين ليبصُروا بآثار الفرقة والصراع على السلطة!

وكانت النذر أقرب إلى قلب معاوية بن يزيد؛ إذ خلفه فنزل عن الخلافة، وأعلن أن آباءه كانوا جائرين. فكان هذا حكمًا عليهم من أنفسهم.

* * *

وبايع بنو أمية من بينهم مروان بن الحكم وخلفه ابنه عبد الملك فأقر أخاه عبد العزيز بن مروان أميرًا على مصر، وتتابع الملك العضود في أبناء عبد الملك الأربعة نحو الأربعين عامًا وإن توسط عقدها ثلاثون شهرًا أو نحوها من خلافة راشدة لابن عمهم وزوج أختهم عمر بن عبد العزيز. بدأها باستدعاء الجيش الذي يحاصر القسطنطينية إدراكًا منه أن (المسلمين أحب إليّ من الروم وما حوت) كما قال.

وضرب عمر من نفسه مثلاً للمسلمين بالتقوى والزهد والبدء بنفسه وأهله في رد المظالم. ولما قدر على فنسه وأهله قدر على الناس: فأقام الحدود وأغنى المحتاجين، فلم يوجد عند توزيع الصدقات من يستحق الصدقة سواء في المدينة المنورة أو في أفريقية! وأصبح الناس إذا تلاقوا سأل بعضهم بعضً عن عباداتهم وأورادهم في لياليهم. وسار سيرة جده لأمه عمر بن الخطاب [٢] إذ سئل: كيف تخرب القرى وهي عامرة؟ فأجاب: (إذا علا فجّارُها أبرارها وساد منافقوها)، فأدنى الأبرار منه وأقصى عنه أهل النفاق، وأدق النظر في اختيار عماله.

ولم يكتف بتطبيق الشريعة، بل جعل ولاية الحكم للفقهاء، فأبو الزناد صار كاتبًا لعبد الحميد بن عبد الرحمن بن زيد بن الخطاب في خراج العراق، والحسن البصري صار قاضيًا للبصرة. وميمون بن مهران تولى خراج الجزيرة، وسليمان بن يسار تولى سوق المدينة، وأبو بكر بن حزم صار قاضي المدينة وأميرها، ويحيى بن سعيد هو القائل: (بعثني عمر على صدقات أفريقية فاقتضيتها، وطلبت فقراء نعطيها لهم، فلم نجد فقيرًا! ولم نجد من يأخذها! قد أغنى عمر الناس فاشتريت رقابًا فأعتقتهم).

---

(٢) رد عمر للمسلمين ما أخذه بنو أمية ومروان من أموالهم. فافتقر بنو أمية ومروان، فطلبوا إليه أن يبرحوا دمشق سعيًا للرزق، فأذن لهم. وأنفذوا إليه عمته. قالت له: أخاف أن يهيجوا عليك يومًا عصيبًا. قال: كل يوم أخافه دون يوم القيمة لا وقاني الله شر.. فعادت إلى قومها تقول لهم: تزوجون ابنكم عبد العزيز من آل عمر فإذا نزع ابنه إلى الشبه جزعتم!

وحدّث رجل من ولد زيد بن الخطاب قال: (إنما ولي عمر بن عبد العزيز سنتين ونصف السنة، فما مات حتى جعل يأتينا بالمال العظيم فيقول: اجعلوا هذا حيث ترون في الفقراء؛ فما يبرح حتى يرجع بماله. يتذكر من يستحقه منهم فما يجده فيرجع بماله. قد أغنى عمر بن عبد العزيز الناس!). وهو من قبل أن يغنيهم كان يبعث إليهم في أمصارهم من يعلمونهم.

وأهمه تفرق السنين في صدور الحفظة. فكلف ابن شهاب الزهري وأبا بكر بن حزم جمعها. وذات يوم دخل عليه غلام مع أبيه فسأله: ماذا تعلمه؟ قال الفقه؛ قال: علمه الفقه الأكبر؛ قال: وما الفقه الأكبر؟ قال: القناعة وكف الأذى.

وكان من فقهه الأكبر يذكر الناس بغضبات السماء، ليعملوا صالحًا ترضاه، ويتذكروا أسباب نعمة الله. فيكتب إلى عماله: (أما بعد: فهذا الرجف (زلزال) شيء يعاتب الله عز وجل به العباد، وقد كتب إلى الأمصار أن يخرجوا في يوم كذا وكذا وشهر كذا وكذا فمن كان عنده شيء فليتصدق به فإن الله تعالى يقول: ﴿**قد أفلح من تزكى وذكر اسم ربه فصلى**﴾. وقولوا كما قال آدم: ﴿**ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترجمنا لنكونن من الخاسرين**﴾.

هذه الشهور الثلاثون من حكم عمر حجة لله على خلقه باقتدار رجل واحد، في أقصر زمن، على إصلاح ما تفسده دول بتمامها، مهما استحكم الفساد واستغلظ، إذا صدقت النية؛ فإنه عندئذ يجد الرجال الصدق والطرائق القاصدة، ومن خلصت نيته لله فالله معه.

ويذكر المسعودي في مروج الذهب أن صاحب القسطنطينية إذ بلغه نعيه نزل عن سريره وبكى، وقال لوفد من العرب ذهب للفداء بين الروم والمسلمين: لقد بلغني من بره وفضله وصدقه ما لو كان أحد بعد عيسى يحيى الموتى لظننت أنه يحيى الموتى! ولقد كانت تأتيني أخباره باطنًا وظاهرًا فلا أجده أمره مع ربه إلا واحدًا، بل باطنه أشد حين خلواته لطاعة مولاه. ولم أعجب لهذا الراهب الذي ترك الدنيا وعبد ربه على رأس صومعته. ولكني عجبت لهذا الراهب الذي صارت الدنيا تحت قدمه. فزهد فيها حتى صار مثل الراهب [٣].

---

(٣) قال أسلم: اتكأ عمر بن الخطاب على جدار في جوف الليل وهو يعس في المدينة، فسمع امرأة تقول لبنتها: قومي إلى اللبن فامزتيه؛ قالت الفتاة: أما علمت ما كان من عزمه أمير المؤمنين أنه لا يشاب اللبن بالماء؟ قالت المرأة: إنك بمضوع لا يراك فيه عمر! قالت: والله ما كان لأطيعه في الملأ وأعصيه في الخفاء! وعمر يسمع هذا كله.

أما حديث هذه الدولة السياسي من قبل عمر ومن بعده فيمكن إجماله في أنها رفعت رايات الإسلام فوق جبال القارة الهندية في قلب أسيا في الشرق، وفي جبال الأندلس وأطراف أوربة على شواطئ المحيط الأطلنطي في الغرب، على أيدي محمد بن القاسم وقتيبة بن مسلم في أسيا وموسى بن نصير وطارق بن زياد في أوربة. وفي الأندلس استقر المسلمون قرونًا ثمانية انتقلت فيها علوم المسلمين إلى أوربة المسيحية؛ لتختتم العصور الوسطى وتبدأ العصور الحديثة، وينتقل المنهج الإسلامي الذي جاء به القرآن إلى عصور النهضة فتبلغ به الحضارة الغربية مبالغها الحالية.

كما يمكن إجمال تاريخ الحكم والظلم والعقاب والعذاب من السماء في حروب وثورات شغلت تاريخ بني أمية وبني مروان حصّلها قول عبد الملكح بن عمير الليثي لعبد الملك بن مروان إذ هو خليفة: (رأيت في قصر الإمارة بالكوفة رأس الحسين بن علي رضي الله عنهما على ترس، ثم رأيت رأس عبيد الله بن زياد بين يدي المختار بن عبيد، ثم رأيت رأس المختارين عبيد بين يدي مصعب ابن الزبير، ثم رأيت رأس مصعب بن الزبير بين يدي عبد الملك بن مروان، فتحدثت بذلك إلى عبد الملك فتطير منه).

أما الرأس الأول فرأس ريحانة النبي ﷺ. وأما الرؤوس الثلاثة الأخرى فرؤوس قواد أضرموا نيران الحروب على بني أمية وبني مروان والأخير منهم كان صديقًا لعبد الملك ومع ذلك سيّر إليه من قتله!

وكان عبد الملك معدودًا في الفقهاء حتى ولى السلطة فقَسَّت قلبه. والحجاج واحد من ولاته. وهو الذي ضرب الكعبة في حرب عبد الملك مع ابن الزبير إذ تنازعا على الخلافة. وكان لزامًا على الخليفة الفقيه أن يتوقع حساب السماء له على بطشه وبطش الحجاج لحسابه!

فسيرى الناس عند قيام دولة بني العباس، بعد نصف قرن أو يزيد شيئًا، سبعين ونيفًا من بني أمية يتصدرهم حفيده سليمان بن هشام بن عبد الملك يذبحون في وليمة أعدت لهم، ولا يعفى من الذبح إلا حفيد للرجل الصالح عمر بن عبد العزيز!

قال علّم الباب واعرف الموضع – ومضى في عسه، فلما أصبح قال يا أسلم: امض إلى الموضع.. فنظرت فإذا الجارية أيم لا بعل لها، وإذا تيك أمها لا بعل لها، فأتيت عمر فأخبرته، فدعا ولده، فجمعهم وقال: فيكم من يحتاج إلى امرأة فأزوجه؟ قال عاصم: لا زوجة لي فزوجتي، فزوجها عاصمًا. فولدت له بنتًا. وولدت البنت عمر بن عبد العزيز.

ويمكن إجمال الحديث عن ثلث القرن الأخير من عمر الدولة بعد موت عمر بن عبد العزيز بكلمات عن السنوات الأربع التي استخلف فيها يزيد بن عبد الملك (١٠١ – ١٠٥) فاستفتحها برسالة منه إلى ولاته يقول فيها عن الرجل الصالح وعن أرواح المسلمين وأموالهم: (أما بعد فإن عمر كان مغرورًا غررتموه أنتم وأصحابكم، وقد رأيت كتبكم إليه في انكسار الخراج. فإذا أتاكم كتابي هذا فدعوا ما كنتم تعرفون من عهده، وأعيدوا الناس إلى طبقتهم الأولى، أخصبوا أم أجدبوا كرهوا أم أحيوا، حيوا أم ماتوا. والسلام).

وليس بعد قتل الراعي للرعية وسلبها ذنوب!

وتوارى يزيد في مباذله يلقي إليه السمع كل مشاء بنميم، ويُرعى سمعه مغنيتي القصر الشهيرتين سلامة وحبابة، تثبطان نشاطه وتفسدان حاشيته، فيصيح من تباريح غرامه: دعوني أطير! وتطارحه الغانية الصبابة فتهتف: إلى من تدع الأمة؟

ولما لفظت حبابة أنفاسها تلفت نفسه، فلفظ أنفاسه بعدها بأيام سبعة!

تلك حال الدولة التي صيرها معاوية (هرقلية كلما مات هرقل قام هرقل) كما قال له عبد الرحمن بن أبي بكر. والتي حكَمت العرب في الموالي وهم كثرة الأمصار، فلم يصلح حال العرب في جزيرتهم ولا بال الموالي في سائر الديار، وأقبلت الجيوش من خراسان تطالب بعودة الحكم إلى أهل بيت النبي، فليس لعربي على عجمي فضل إلا بالتقوى.

* * *

قامت دولة بني العباس (١٣٢ – ٦٥٦) على شعارين هما:

١- إعادة الدولة للحكم الإسلامي الحق على أن يتولاها أهل بيت النبي.

٢- المساواة بين الموالي والعرب.

لكن الدولة لم تكد تبدأ حتى أبعدت عن الشعارين كل البعد! فأصبحت ملكًا عضوًا يسيطر الموالي فيه على العرب، ويوضع الأساس لحكم (شعوبي) يقتلع كل ما هو عربي ويخلط في العقائد بقصد وبغير قصد ويفتك بأهل بيت النبي.

ولم يكد أبو جعفر المنصور ببني بغداد (سنة ١٤٥) حتى غدت كهيئة صندوق الدنيا: عدسة صغيرة يبصر فيها الناظر إليها عجائب العالم ومتناقضاته!

وسيحكم الجاحظ على الدولة بعد انقضاء قرن على قيامها فيقول: (دولتهم أعجمية خراسانية، ودولة بني أمية عربية أعرابية!).

ولم يقتصر التخليط على الأفكار والأفعال، بل تسرب إلى دماء الخلفاء فكثر منهم الهجناء. المأمون (٢١٨) أمه "مراجل" خراسانية، والمعتصم أمه (ماردة) تركية، وأم الواثق (قراطيس) رومية، والمتوكل أمه (شجاع) خوارزمية، والمعتز أمه (قبيحة) والمقتدر والمستكفي أماهما روميتان والمطيع أمه صقلبية!

وجَنَّ على البيت الهاشمي ليل بهيم تدلج فيه البدع، وتناهت إلى المسلمين إسرائيليات كثيرة وخلافات وعقائد من النصارى والفرس والإغريق، وبدأت آثار الفرقة تظهر في محيط المذاهب بين أهل السنة، ومال بيت الخلافة عنهم زمانًا، فأضرم الفتنة، ثم مال إليهم فلم ينفع أو ينتفع، فلقد ساءت سيرته واستيئس العلماء منه، أن صار ناديًا للخمر وللهو منذ المائة الثانية من عمر الدولة.

وحياة الأمم في عصر هي حاصل حياة أفراده وقواده. والناس على دين ملوكهم.

وبعد أن كان في الدولة جهاز لمقاومة الزندقة أصبح فيها من العلماء من يحرض المأمون والمعتصم على الفتك بعلماء الحديث والسنة، واقترنت نزعة الاجتهاد ونزعة التقليد، ثم استبد التقليد بعقول العلماء، وخبا الضياء، وران الجهل على القلوب، ولم يعد بين الخلفاء علماء أو أصحاب ورع، بل شاعت أحاديث البلهنية والرفاهية عنهم، وحكمت الحاشية باسمهم أو على الرغم منهم [٤].

---

(٤) فقدت الدولة العباسية توازنها بعد موت الرشيد، وكان أول الأسباب فساد الدين وسوء سلوك الخليفة الأمين، إذ أوصى إليه الرشيد بالخلافة تغليبًا للعنصر العربي في بني العباس فأمه زيدة بنت عم الرشيد، وأوصى لأخيه الأكبر – المأمون – بخراسان. واستفتح الأمين عصر اللهو والخمر والمجون في بيت بني العباس على مدى سنوات خمس تعسة، وثارت خراسان على الخليفة العربي الأب والأم، كمثل ما ثارت على دولة بني أمية العربية الأعرابية كما يصفها الجاحظ، وانتصرت جيوشها على الأمين وقتلته وأحلت المأمون محله. وسار المأمون سيرة سوء في المحدثين: ففصل بين الأمة وبين الخلافة، ثم خلفه أخوه المعصتم بعد أن وصاه المأمون أن يسير في المحدثين سيرته نفسها وأن يمتحنهم بمحنة خلق القرآن، وهو الخليفة الذي ضرب أحمد بن حنبل ووضعه على العقابين ليعذب حتى الموت أو يقول بخلق القرآن ولو تقية. وكان طبيعيًا وقد انحرفت الدولة عن الجادة على مدى ثلث قرن من حكم الإخوة الثلاثة أن تنحرف عن العرب إلى الفرس في حياة المأمون، فهم أخواله وجنده، ثم إلى الترك في حياة المعتصم فهم أخواله وجنده! وكان غير طبيعي أن يسقط

وكما استعان المأمون بأخواله الفرس استعان المعتصم بأخواله الترك فغلب الواغلون على الدولة، وقتلوا ابنه المتوكل بمؤامرة مع ابن له، ثم قتلوا ذلك الابن، ثم ولوا المستعين ثم قتلوه (٢٥٢) وولوا المعتز ثم خلعوه. بعد ثلاث سنوات وحبسوه في بيت مسدود حتى مات فيه! وولوا المهتدي ثم قتلوا سنة ٢٥٦، وولوا المعتمد ثلاثة وعشرين عامًا طالت قدر ما طال خضوعه لهم، فلقد طلب ذات يوم ثلثمائة دينار فلم يجدها!

وتناقل التاريخ شعره:

ألـــيس مـــن العجائـــب أن مثلـــي يـــرى مـــا هـــان ممتنعًـــا عليـــه

المعتصم العرب من ديوان الجيش، وأن يقصر على الأتراك، فقد لاذ منهم بذئب سيفترس أبناءه وخلفاءه. وأحدث الأتراك الانفصام بين الحكومة وبين العقيدة، وأصبحت السلطة غرضهم على حساب الأمة والعقيدة، فتوجه بنو العباس إلى اللهو المزري يغرقون فيه همومهم، وإلى السرف يعوضون فيه حقائق السلطة التي تفلتت من أيديهم إلى الترك، فأصبحوا أسرى لهم، بمظاهر الثراء والبحبحة؛ ليظهروا في أعين الناس وفي أعين أنفسهم أنهم ما يزلون محل اعتبار! فالواثق بن المعتصم – هو الذي توج أشناس التركي ملكًا.

وهو الذي جلس ذات يوم على سرير مرصع بالجواهر وعليه ثياب منسوجة بالذهب في قصر مفروش بالوشي والديباج يشرب رطلاً بعد رطل من النبيذ، ويستمع إلى جاريته (فريدة) وهي تغني:

أهابـــك إجـــلالاً ومـــا بـــي حاجـــة إليـــك ولكـــن مـــلء عـــين حبيبهـــا
ومـــا هجرتـــك الـــنفس يـــا ليـــل أنهـــا قلتـــك ولكـــن قـــل منـــك نصـــيبها

وأخته النشوة فضربها برجله، فتدهورت تحت السرير فقال: صنعت ذلك لأنني تصورت أنك ستغنين بعدي للمتوكل! ولما خلفه أخوه المتوكل (جعفر) اختفت فريدة، وملكت قلبه الجارية (قبيحة)، فآثر ابنها المعتز على ابنه الآخر المنتصر، فتآمر المنتصر على أبيه مع الأتراك فقتلوه سنة ٢٤٧، ثم قتلوا المنتصر بعد ستة أشهر!

ولم يظهر أحد من الإسراف ما أظهر المتوكل: بلغ مجموع ما أنفقه على بناء القصور مائتين وتسعين مليون درهم وهي ثلاثة أرباع دخل الدولة في عام، وكانت كل نوبة من نوب الفراشين في هذه القصور أربعة آلاف من السراري، أما فراشه فيخصص له خمسمائة وصيفة أحظاهن عنده (قبيحة) خرجت إليه يوم عيد النيروز تساقيه الخمر وتغنيه:

فيـــا مـــن مناهـــا فـــي الســـريرة جعفـــر ســـقى الله مـــن ســـقيا ثنايـــاك جعفـــرا!

وتؤكـــــل باســـــمه الـــــدنيا ومـــا مـــن ذاك شـــيء فـــي يديـــه؟

ثم ولوا المعتضد فالمكتفي حتى مات سنة ٢٦٥، وولوا أخاه المقتدر وهو غلام أخذًا بنصح وزيرهم ابن الفرات حين رشحه للخلافة، لأنه (صبي لا يدري أين هو، وعامة سروره أن يصرف من المكتب) وثارت عليه طائفة منهم ولت ابن المعتز. وله الأرجوزة الذائعة الصيت في الأدب العربي، وفي بيت واحد منها قانون السلطة الذي أخذ به الأتراك خلفاء بني العباس، وهو في طليعة المأخوذين؛ إذ لم يستخلف إلا ليلة! فكان كما قال في أرجوزته:

كـــل يـــوم خليفـــة مقتـــول أو خـــائف مـــروع ذليـــل

ثم أعادوا المقتدر، فكانت أمه تسوس الدولة وتجلس قهرمانتها (ثمل) للمظالم!

ولما قبضت أم المقتدر يدها عن الجند قتلوا ابنها، وولوا أخاه من غيرها ولقبوه (القاهر) فعلقها منكسة من رجل واحدة ليستخرج منها مائة وثلاثة آلاف دينار!

وخلع الأتراك القاهر بعد عامين، وفقئوا عينه، وأجاعوه، فكان يتكفف الناس بين الصفوف في جامع المنصور!

ثم ولوا الراضي سنة ٣٢٢ فبقي حتى سنة ٣٢٩، وفي عهده أضيفت في خزائن الدولة إلى جمجمة وزير سابق "هو الحسن بن القاسم" يد وزير لاحق هو ابن مقلة وهي صاحبة الحظ الشهير باسمه. فحفظنا واحد كتب عليه: (إن هذه اليد هي التي أمرت بقطع هذا الرأس)!

وفي سنة ٣٢٩ ولوا المتقي ثم خلعوه سنة ٣٣٤ وسملوا عينيه، وولوا المكتفي ولم يهملوه إلا أربعين يومًا، ثم دخل عليه اثنان من النقباء الديلم فتناولا يده، فمدها حسبانًا منه أنهما سيقبلان يده! فجذباه من سريره وجعلا عمامته في حلقه وساقان ماشيًا إلى دار معز الدولة البويهي وسملوا عينيه!

وولوا ابنه المطيع ليبقى في طاعتهم حتى سنة ٣٦٣، وفي عهده قامت هوشة الكرخ من أحياء بغداد فحرقها الوزير معز الدولة (أبو الفضل الشيرازي)، بل أرسل جنده فطرحوا عليها النار وأحرقوا النساء والصبيان والأموال، فهلك ١٧ ألف إنسان، وثلثمائة دكان، وثلثمائة وعشرون دارًا. وثلاثة وثلاثون مسجدًا. والبويهيون شيعة، وسكان الكرخ شيعة! وسيتابع الخلفاء المطاويع حتى المستعصم وهو الذي يقول ابن الطقطقي فيه وفي نداماه وحاشيته: (كانوا منهمكين معه في التنعم واللذات لا يرجون له صلاحًا! ومما اشتهر عنه أنه كتب إلى بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل يطلب منه جماعة من ذوي الطرب، وفي تلك الحال وصلت رسل السلطان الأكبر (هولاكو) يطلب منه منجنيقات وآلات حصار، فقال بدر الدين: (انظر إلى المطلوبين، وابكوا على الإسلام وأهله!".

* * *

وجرى قضاء الله على المسلمين بما يستحقون، وبخاصة أولي الأمر منهم. سواء أكانوا الأمراء الذين استسخروا أو عمل العلماء في إضلالهم. أم كانوا العلماء الذين أضاعوا العلم، ولم يأمروا بالمعروف وينهوا عن المنكر!

وتخلف عن آثار الانفصام الذي أصاب دولة تظهر النسك وتبطن نقيضه، ومشيخةً للعلماء يأخذ الأمراء من دينهم أضعاف ما يصيب العلماء من دنيا الأمراء – أن أصبحت الأمة رجراجة، تتجذب يمنة أو يسرة على حسب ذبذبات السلطة، وتدفعها بين هؤلاء وهؤلاء شهوات الحكام بالسلاطة والقسوة في مهاب الرياح الأربعة!

وحسبك أنباء صغيرة من (حوليات) ذلك الزمان تفوق دلالتها أفسح التعبيرات عن فساد كالمائعات يسيل إلى الناس من علٍ. ولقد طالما فاقت همسات الصغائر جلجلة الكبائر في الأثر، وبخاصة عندما يفارقها صاحب السلطة أو رجل العلم الذي تطلع إليه العامة والخاصة:

لم يكد القرن الثاني للهجرة يشارف ختامه في أخريات عصر الرشيد حتى شرع بنيان الدولة العباسية في التصدع، فقامت في أقطارها المتنازحة دويلات صغيرة أولاها دولة الأغالبة (١٩٠ – ٢٢٠) في أفريقية، ثم الدولة الطاهرية في خراسان، ثم الدولة السامانية في عهد

المتعضد، ثم الدولة الصفرية في عهد المعتز، وقامت بمصر الدولة الطولونية (٢٤٥ – ٢٩٢)، فالدولة الأخشيدية [٥] (٣٣٢ – ٣٥٨)؛ كما قامت الحمدانية في حلب (٣١٧ – ٣٩٤).

وفي أفريقية قامت الدولة الفاطمية سنة ٢٩٧ لتبقى دولة كبرى حتى سنة ٥٦٧.

وغلبت دولة بني بويه على الخلافة العباسية ابتداء من سنة ٣٣٤ إلى ٤٤٧ عندما دخل السلاجقة بغداد، وصار الخلفاء دُمًى في أصابع البويهيين، فالسلاجقة، واستحبوا الخنوع، واتخذوا المنصب الديني وسيلة للمعاش، فأصبحوا عناوين كذب على حكم لا يمت إلى الدين بأوهى سبب.

يقول عنهم المسعودي في سنة ٣٤٥: (لم أعرض لوصف أخلاق المتقي والمستكفي والمطيع ومذاهبهم؛ إذ كان هؤلاء الخلفاء كالمولّى عليهم: لا أمر ينفذ لهم، أما ما نأى عنهم من البلدان فتغلب على أكثره المتغلبون الذين استظهروا عليهم بكثرة الرجال والأموال، واقتصروا على مخاطبة الخلفاء (بإمرة المؤمنين) والدعاء لهم، وأما بالحضرة فتفرد بالأمور غيرهم، وصاروا خائفين، قد قنعوا باسم الخلافة، ورضوا بالسلامة).

وصغار الخلفاء كهوان العلماء وغلول الأمراء ولصوصية الحرس – نذر دماء لا يتخلف: يذكر ابن الأثير في الكامل أن المطيع قال للأمير إذ طلب منه ما لا للغزو: (إن الغزاة والنفقة عليها وعلى غيرها من مصالح المسلمين تلزمني إذا كانت الدنيا في يدي وتجبى الأموال إليّ، وأما إذا كانت حالي هذه فلا يلزمني شيء! وإنما يلزم مَن البلاد في يده، وليس لي إلا الخطبة، فإن شئتم أن أعتزل فعلت).

فخليفة المسلمين يعتزل الخلافة فيهم، إذ يختلف هو ورجل، بل هو لا يملك أن يعتزل إلا أن يأذن له الرجل!

ويقول ابن الجوزي في كتابه المنتظم عن أحداث سنة ٤٢٦: إن سخط الخليفة القائم بأمر الله على الدولة بلغ به أن يأمر القضاة بالامتناع عن الحكم ويأمر الخطباء (ألا يحضروا إملاكًا ولا يعقدوا عقدًا!).

---

(٥) الإخشيد لقب فارسي كان يطلق على ملوك الفرغانة. ومعناه "ملك الملوك" وسنرى بعد سخط الناس على هذا اللقب عندما ادعاه لنفسه الأمير التركي بلغة عربية.

فخليفة المسلمين يعطل أحكام الشريعة إذا غضب ويجريها إذا رضى!

ومن قبل هذا الانتقاض على الدولة التي تدار باسمه كان الخطباء ينتقضون على الخليفة ذاته: روى بن الجوزي في حوادث سنة ٤٠٢ أنهم كانوا بعد الدعاء للنبي ﷺ يضيفون دعاء شيعة على بن أبي طالب: (وعلى أخيه أمير المؤمنين على بن أبي طالب مكلم الجمجمة ومحيى الأموات، البشرى الإلهي، ومكلم فتية أهل الكهف!)

وإذا كان خليفة المسلمين خشخاشة، وكان الدعاء لعلى على المنبر يقترن بأراجيف مكفرة ترفعه على رسول الله ﷺ – فلم لا يضيف أمير بني بويه لنفسه لقبًا يشبَذه نفسه فيه بالله جل جلالة؟ ولم لا يمشي إليه بالخليفة هرولة، أو يتبادر العلماء في ركابه؟

وصدق رسول الله ﷺ: (من شر ما أوتي العبد شح هالع وجبن خالع).

يذكر ابن الجوزي عن أحداث سنة ٤٢٩ ما يذكره ابن السبكي في طبقات الفقهاء.

(في رمضان من تلك السنة استقر أن يزاد في ألقاب جلال الدولة (البويهي) لقب شاهنشاه الأعظم (أي ملك الملوك)، فأمر لخليفة القائم أن يخطب له به، فنفر العامة ورموا الخطباء بالآجر! فكتب الخليفة إلى العلماء في ذلك، وأجاب أبو عبد الله الصيمري: أن هذه الأسماء يُعبر فيها القصد والنية. قال الله تعالى: (إن الله قد بعث لكم طالوت ملكًا) وقال تعالى: (وكان وراءهم ملك) وإذا كان هذا في الأرض جاز أن يكون بعضهم فوق بعض، وليس في هذا ما يوجب التكبر أو المماثلة بين الخالق والمخلوق.

وكتب أبو الطيب الطبري أن إطلاق "ملك الملوك" جائز، ويكون معناه ملك ملوك الأرض، وإذا جاز أن يقال: (كافي الكفاة). و (قاضي القضاة) جاز (ملك الملوك)؛ وإذا كان في اللفظ ما يلد على أن المقصود ملك الملوك في الأرض زالت الشبهة. وكتب التميمي الحنبلي نحو ذلك.

وذكر محمد بن عبد الملك الهمذاني أن الماوردي (وكان شافعيًا) منع من جواز ذلك، وكان يلي وظيفة (قاضي القضاة) لجلال الدولة. فدعاه جلال الدولة فمضى على وجل يتوقع المكروه، فلما دخل عليه قال له: أنا أتحقق أنك لو حابيت أحدًا لحابيتني لما بيني وبينك مع أنك

أكثر الفقهاء إيمانًا وأوفاهم جاهًا ومالاً، وما حملك على مخالفتي إلا الدين. وقد قربك ذلك مني وزاد محلك من قلبي. وقدمتك على نظائرك عندي [٦].

وعلق ابن الجوزي – وهو الحنبلي – على الفتوى بأن قاضي القضاة (الماوردي) على حق لأنه قد صح في الحديث ما يدل على المنع، ولكن الفقهاء المتأخرين عن النقل بمعزل.

ويشرح ابن السبكي (الفقيه الشافعي) قول ابن الجوزي، فيذكر النقل المقصود وهو حديث الرسول: "أخنع اسم عند الله تعالى رجل تسمى ملك الأملاك) وحديث (اشتد غضب الله تعالى على رجلٍ تسمى بملك الملوك. لا ملك إلا الله تعالى). وأضاف أن دولة بني بويه لم تمكث بعد هذا اللقب إلا قليلاً.

---

(٦) العلم أمانة لا تحتمل إلا الوفاء. وقد يختلف العلماء ولكنهم يؤدون الأمانة، ولا يتواطئون، ولا ينتصرون للظلم أو للكفر. ومنهم السياسيون الذين يتيحون للدولة المنادح والفرص. ومنهم من يأخذونها بالشدة حتى لا تميل، لكن الفريقين لا يبغيان إلا النصيحة للمسلمين. إليك مثلاً من خلاف عالمين يمثلان الفريقين:

بعث عمر بن هبيرة وإلى العراق لبني مروان إلى الشعبي (١٠٤) المحدث وقاضي الكوفة لعبد الملك بن مروان وسفير، وصديقة وإلى الحسن البصري (١١٠).

قال عمر بن هبيرة: إن أمير المؤمنين يزيد بن عبد الملك طلب إلى أمورًا أعمل بها، فما ترىان؟

قال الشعبي: أنت مأمور والتبعة على من أمرك!

وقال الحسن: إن الله تعالى ينجيك من يزيد، وإن يزيد لا ينجيك من الله سبحانه وتعالى. لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق. وخرج الحسن وتبعه الآذن يقول له: أيها الشيخ ما حملك على ما استقبلت به الأمير؟

قال الحسن: قال الله تعالى: ﴿ **وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلا تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ** ﴾ والحسن أعلم بيزيد فهو يدرك ماذا بعث به إلى عمر.

ولقد مر بنا أمر يزيد.

ولم يمض جلال الدولة بعد هذا أشهرًا وعاش الماوردي (٤٠٥) سنين ضنينًا بكرامة العلم والعلماء وهو مع عظمته في القضاء أعظم في الفقه وفي أدب الدنيا والدين وفي تفسير القرآن.

* * *

في هذه الواقعة التي تنطق بانحراف الخليفة والسلطان والإمعَّات الطائعة من أهل العلم دلالة على مبلغ ما استشرى الفساد في كل وجه. وسيرد التنبيه على خطره على العقيدة الإسلامية بعد قرون في كتاب التوحيد لابن عبد الوهاب وشراحه [٧].

ولئن كان لنا أن نلاحظ أن السلطان التركي لم يفكر في تفخيم دولته إلا وهي تهوى نحو الزوال إخفاء منه لواقع الحال – إن المرء ليشهد كذلك سلطانًا قاهرًا دينه القوة وديدنه الغلول! وخلفاء مقهورين لا حول لهم ولا طول! وعلماء معممين يعيشون أو متعامين. فإذا اجتهد واحد منهم لم يجتهد ليظهر حكم الله؛ وإنما كان همه وكبر مناه أن يبرر للسلطان شهوة تتعارض هي وصريح النص أو جلال الواحد القهار.

والناس دائمًا – والمسلمون بوجه خاص – ينتظرون موقف الصدق من الأمراء وكلمة الحق من العلماء، فما أضيع الأمة إذا فسد هؤلاء كلهم أو جلهم!

ولئن قارب الأتراك الخلفاء ليربطوهم بقطارهم. أو أصهروا إليهم ليضيفوا الدم القرشي النقي إلى دم طولوني أو سلجوقي – إن زواج الدولة هذا كان يدير الحدق في شتى الاتجاهات، ويتغيا أغرب الغايات من أغراض الزواج! ففي القرن الثالث زوج خمارويه بن أحمد بن طولون بنته قطر الندى المعتضد، ليخلع على بني طولون حلة من البهاء، في حين كان المعتضد يقول: ما قصدت بهذا الزواج إلا إقفارًا ابن طولون؛ لأنه يضطر أن يجهزها بما بما لم تجهز به عروس من قبل! وكان ما قاله: جُهزت بما استفرغ خزائن مصر والشام!

---

(٧) قال الشيخ محمد بن عبد الوهاب في كتابه التوحيد: (باب التسمي بقاضي القضاة أو نحوه): (في الصحيح عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: إن أخلع اسم عند الله رجل تسمى ملك الأملاك. لا مالك إلا الله). قال سفيان بن عيينه: مثل شاهنشاه.

والإمام أحمد بن حنبل يروي هذا الحديث عن سفيان ويرويه بطرق أخرى.

ومن قبل ابن عبد الوهاب يقول ابن قيم الجوزية: تحرم التسمية بسيد الناس وسيدة الكل (ست الكل) كما يحرم تسييد ولد آدم؛ فإن ذا ليس لأحد إلا للرسول ﷺ.

وفي القرن الخامس غلب السلاجقة على البوهيين، فدخل طغرل بك مؤسس الدولة السلجوقية بغداد، فأطلق الخليفة القائم بأمر الله من حبسه، وأخذ بلجام بغلته وزوجته بنت أخيه داود سنة ٤٤٨. ثم تزوج هو بنت الخليفة. حتى إذا ولي السلطان مسعود السلجوقي أجلس الخليفة المتقي على مسند الخلافة، وبايع له، ثم أخذ جميع ما بدار الخلافة من ذهب وأثاث وغيرها وانصرف!

وتستمر الحال على هذا المنوال حتى يدخل هولاكو بغداد سنة ٦٥٦ بخيانة وزير الخلافة ابن العلقمي، فيقتل الخليفة ويجزي ابن العلقمي غدرًا يغدر فيقتله!

وكمثل زواج الدولة وخيانة الوزراء، ومهانة الذين فسقوا عن أمر ربهم لأجلهم – كان رياء السلاطين وتجارتهم بالدين وهوان الأحياء من بني العباس!

لقد ولى واحد من بني العباس فرارًا من بطش التتار، فهبط مصر سنة ٦٦٠ فتلقفه سلطانها الظاهر "بيبرس"، وعينه خليفة قرشيًا، ليتخذه شعارًا لمشروعية حكمه، ثم تتابع في مصر تعيين السلاطين لخلفاء رمزيين من بني العباس ربما عاشوا من النذور التي كانت تقدم في مسجد يحمل اسم السيدة "نفيسة بنت الحسن" القائم الآن بالقاهرة في حي يحمل اسم (حي الخليفة) تخليدًا لمكان إقامة هؤلاء الخلفاء حتى سنة ٩٢٣ – ١٥١٧م.

ففي ذلك العام غزا الأتراك مصر، ورجع السلطان سليم العثماني إلى القسطنطينية حاملاً نفائسها وأعلاقها وعمالها المهرة ومعهم (الخليفة العباسي)؛ لتنتهي خلافة بني العباس بمصر ولتبدأ "خلافة" تركية للعثمانيين في إسطنبول تبقى قرونًا أربعة حتى يقضي عليها مصطفى كمال في النصف الأول من القرن الرابع عشر للهجرة والربع الأول من القرن العشرين للميلاد.

* * *

هكذا سخر الأتراك الخلافة في كل العصور، فأذلوا بني العباس في بغداد، وشروا بهم متاعًا قليلاً في القاهرة، وحملوهم في رحالهم إلى أسطنبول؛ ليرثوهم أحياء، ورفعوا الشعارات الدينية لإيهام الرعية وغيرها بأن الدولة قد تكامل فيها أمر الدين والدنيا بمجرد رفع الشعار دون الالتزام بمضمونه. واستبدلوا الشكل بالموضوع، والطقوس بالحقائق، والبدع بالسنن، وظواهر الأشياء بجواهرها.

وازداد انحدار الجماعة والدولة واستمر، فلم يكد يبقى فرق بين الحكم الوثني وبين حكم المجتمع الإسلامي!

ولم يعد الحرص على الإسلام مشغلة الحكام، ولا العض على الدين بالنواجذ فضيلة المجتامع، وإنما انشغل الحكام بالتسلط، وانطوى الصلحاء على أنفسهم، وأقفل العلماء باب الاجتهاد. وأمعنوا في تقليد غيرهم وتعطيل فكرهم. وضعفت عزائم الناس عن التصدي للمنكر، فحق عليهم قول رسول الله ﷺ.

(إن الناس إذا رأوا المنكر فلم يغيروه أوشك الله أن يعمهم بعقاب من عنده).

وما كان تعاقب الدول الغازية لهم – واحدة بعد أخرى – إلا جزاء السماء لهم على أحداث أحدثوها بأنفسهم.

المنهج السلفي مركز الثقل في الأمة

في إبان هذا الفساد الذي يتزايد قدر ما تتباعد العصور من فجر الإسلام ويتحكم الشعوبيون في الأمة ويمكن الحكام لدولهم على حساب دينهم، وتسري القدوة السيئة من الحكام إلى الرعية، وتشيع البلبلة من البدع الوافدة من الخارج، نتجت أمة العرب فحولاً ليس لهم نظائرها في تاريخ الشرائع نذروا حياتهم لتعليم المسلمين فقه الشريعة بتخريج معاني النصوص وتطبيقها وتجلية الكنوز الدينية والفكرية التي حيى بها المسلمون. وكانت بدع المتكلمين والمشعوذين والمتساهلين محلاً للحرب، فهي –كالسموم التي تتعاطاها الأمة بيدها– أعجل في التداول والانتشار والدمار!

ففي القرن الثاني علا نجم مالك (١٧٩) في سماء الحجاز ممثلاً علماء المدينة من محدثين وفقهاء، وارتفع اسم أبي حنيفة (١٥٠)، واقترن بإمامة الرأي في العراق، وفي أواخر القرن انطلق محمد بن إدريس الشافعي (٢٠٤) من مكة والمدينة إلى مراكز العلم في بغداد بالعراق وجامع عمرو في مصر؛ ليزيد فقه الإمامين اللذين سبقاه تسديدًا، وليضع أصول الفقه الإسلامي، ويرسي قواعد الاجتهاد، ليجري على سننها المتفقهة أجمعون، ويسير على الطريق ذاته سائر علماء المسلمين.

وفي مدرسة المحدثين وحلقة الشافعي نجب أحمد بن حنبل (٢٤١)، فأصبح إمامًا في الفقه والحديث، وكان أكثر الأئمة علمًا بالنصوص والآثار واستعمالاً لها ولأصلي الإباحة والاستصحاب، فكان مذهبه أظهر المذاهب يسرًا وسعة والتزامًا لمنهج السلف.

وفي فاتحة المائة الثالثة تجمعت التيارات الفكرية ودعاوي اليهود والنصارى بين أيدي العلماء، يواجههم بها مرجفون ظاهرون ومستترون، هيأت لهم سماحة الجماعة الإسلامية ظروفًا مواتية وفتح لهم الأبواب استهتارُ الخلفاء والحكام بعد إذ ولي الأمين في خواتيم المائة الثانية، وألهاه المجون عن الزنادقة، ثم ولي المأمون وكان شديدًا في التشيع، عنيدًا في فرض آراءه المعتزلة على الأمة، حريصًا على ترجمة كتب الإغريق والفرس والهنود، وفتح الأبواب على مصاريعها لكل قول، وألزم العلماء والسيوفُ على أعناقهم، أن يعتنقوا آراء المعتزلة في القول بأن القرآن "مخلوق". وكان أحمد بن حنبل عالم العصر، فكان رجل الساعة، فقال كلمة الساعة.

وسما اسم أحمد بما أصابه من العذاب والاسترهاب ووقوفه في وجه البدع التي أحدثها بعضٌ سواء من المتكلمين [٨] الذين أدخلوا في مجالات العلم والفقه ومقولات جدلية قد تحدث البلبلة، أو من العباد أو الزهاد الذين يخترعون بدعًا لم يصنعها السلف الصالح ولا تحتملها النصوص أو المعاني الكلية المستنبطة من مجموع نصوص.

والشريعة معقولة المعنى، فلا يمكن أن يتناقض صريح المعقول وصريح المنقول فيها، ويتعين على المسلم أن يبادر إلى ما تكلم الله به من اللفظ، فيتدبره ويعمل بفحواه: كما تلقاه المسلمون عن الرسول وصحبه وتابعيهم فهؤلاء خير القرون. وفيهم قوله ﷺ: (خير القرون قرني ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم) قال عمران بن حصين: فلا أدري: أقرنين ذكر بعد قرنه أم ثلاثة؟ (ثم إن بعدكم قومًا يشهدون ولا يستشهدون، ويخونون ولا يؤمنون، وينذرون ولا يوفون. ويظهر فيهم السمن) [٩].

وعمل هذه الأجيال وبخاصة جيله – عليه الصلاة والسلام – خير عمل. فهو بين أن يكون عن مشاهدة لما صنع الرسول وأن يكون فهمًا صحيحًا منهم للشريعة، وقد كانوا أول من خاطبهم الله تعالى. فعملهم عمل السلف الصالح الذي زاده أحمد بن حنبل تثبيتًا عند جمعه للسنة في (المسند) ليكون مرجعًا يرجع الناس إليه.

---

(٨) المتكلمون – والمعتزلة منهم – أصحاب علم الكلام. وهو علم يتضمن الحجاج بالأدلة العقلية – عن العقائد الإيمانية بعد فرضها صحيحة من الشرع، فهم يبدءون بالعقل وينتهون إلى إثبات الشرع، ويردون على أصحاب البدع والمنحرفين في الاعتقاد.

وكثر جدال المتكلمين في القضاء والقدر والجبر والاختيار وصفات الله جل شأنه ونظرية الإمامة – الخلافة – وكثر فيهم المؤولون لألفاظ الكتاب والسنة، واستطار الخلاف بينهم وبين المحدثين ومع المحدثين جمهور الأمة. يقول الإمام الشافعي: (إياكم والنظر في الكلام؛ فإن الرجل لو سئل عن مسألة في الفقه أخطأ فيها؛ كما لو مثل سئل عن رجل قتل رجلاً فقال: دينه بيضة – كان أكثر شيء أن يضحك منه، ولو سئل عن مسألة في الكلام فأخطأ فيها نسب إلى البدعة). ويروي عنه الربيع قوله: (لو أن رجلاً أوصى بكتبه من العلم وفيها كتب الكلام لم تدخل كتب الكلام في هذه الوصية). ولما ناظر حفص الفرد في دعوى خلق القرآن انصرف حفص كاسف البال يشكو أن الشافعي كفر.

(٩) ويروي ابن مسعود أنه عليه الصلاة والسلام قال: (خير القرون قرني ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم ثم يجيء قوم تسبق شهادة أحدهم يمينه، ويمينه شهادته). والقرن الجيل، ثم استعملت الكلمة بعد ذلك بمعنى مائة عام.

وتتابع على الجمع والتصحيح بعده أصحاب الصحاح والمسانيد في القرون التالية، وتناقلت الأجيال السنة الصحيحة، وفهمت أسماء الله وصفاته وتوحيده على الوجه الذي جاءت به النصوص، وفهمها به الصحابة من النبي، والتابعون من الصحابة، دون أن تحيك في صدورهم الشكوك. والله تعالى يقول: (ليس كمثله شيء) فهو بصير وسميع له الأسماء الحسنى – يسمع ويرى لا كما يسمع الناس ويرون، ويستوي على عرشه – هو – لا كهيئة الملوك أو عروشهم – والكون كله في قبضته بسلطانه وجلالة شأنه.

وعمل العلماء العدول بالسنة وعلموها. فلم يوجد في الأئمة مشبه أو مجسد أو مبتدع. وكثر فيهم الزهد على نحو ما زهد الصحابة والتابعون: لا يصطنعون هيآت للتعبد ولا يسبغون مستحدثات لم يسبق بها الأولون. فإذا أضافوا جديدًا فإنما يضيفون فضل عملٍ لا ينبو عن الأصل.

وخلف من بعد هؤلاء الأئمة خلف لم يكونوا أمثالهم، لكن الأئمة تركوا آثارهم فيهم. فنشروا العلم، ولم يستطيعوا أن يمسكوا بالسلوك عن أن ينفعل بما أصاب الأمة من غير الزمان واضمحلال الإقبال على الجهاد، وهو ترياق من طبيعة الجماعة الإسلامية شرعه الله ليصهر معدنها وليطهرها ويصقلها، فإذا اضمحل غلبت عليها الدعة وإيثار العاجلة والاستهتار بالقيم الدينية في الحياة اليومية، فعجزت عن أن تجاهد الشهوات في أنفس أفرادها بالقيم الدينية، أو تنتهي عن المنكر إذا ارتكبه السلطان أو فارقته الجماعة.

ثم أخذ التخليط الوثني سبيله إلى المجتمع على أيدي غزاة غلاظ القلوب من ديالمة بويهيين، وسامانيين أو خراسانيين وتتار وأتراك يبغون للدين نصرة، لكنهم إذا أسلموا بقى في فمهم للإسلام آثار من دياناتهم أو مجتمعاتهم السابقة، تدخل في المجتمع المغلوب على أمره بدعًا يقبل عليها المقهورون.

والمسلمون أمة صنعتها شريعة تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر، وتؤمن بالله. ويوم يخرجون على قانونهم جهرة أو خفية يفقدون التمكن والتوازن. ويذلون للحكام أو الأغنياء أو الأقوياء، وينساقون لتقليد المزخرفين والمزوقين فلا يتناهون عن منكر فعلوه. وتتسع الهوة بين حياة المسلم وعقيدته، وتنحدر الجماعة إلى مستوى أدنى من الإسلام، فذلك يوم لا يصدق عليهم فيه أنهم مسلمون، وتكتب عليهم الهزائم من أنفسهم ثم من الخارج.

والهزائم من أنفسهم معروفة: فَهْمُ غير صحيح للدين أو تراخ في التمسك بتعاليمه من أمره ونهيه وأدبه وإرشاده، وانقطاع عن الجهاد وامتناع عن الاجتهاد وتقليده لغيرهم في الدين، وتحويل للعبادة الصادقة إلى طقوس أو شكليات! وأنواع عيش من يوم ليوم بين الرجاء الذي لا يعملون له واليأس الذي يرين على قلوبهم، ورضاهم بأن يكونوا مع الخوالف..!

ويسلم جيل مستيئس مستسلم نقائصه إلى جيل أشد ابتعادًا من الأصل وافتقادًا للأمل. وكلما استحكم اليأس انقطع العمل الجاد الذي تحيا به الأمم. ونما التواكل الذي يقتل العزائم، وركن الناس إلى خرافات تبيش وتفرخ في أفهام الخاصة وأوهام العامة، وتمتد جذورها في ثرى المجتمع وترتفع فروعها، فيستظل بها العلماء والأمراء. ويسيطر الخوف على الناس كافة من غير سبب سواء من الأشخاص أو الأشياء أو الأفكار – فترى الرجال أشباه رجال والعلماء صور علماء!

وفي هذا الخليط من الوساوس والرذائل يضمحل شأن العلم، ويلتحق العلماء بمواكب السلطة، ويوشك العقاب أن يعم الأمة، فلا يصيب الذين ظلموا خاصة.

والهزائم من الخارج وليدة هزائم الدخل: فهذه الأمة لا تدمرها العوامل السياسية أو الحربية أو الجغرافية أو تكاثر العدو أو ظهور غيرها من الأمم على وجه كرة الأرض، أو ظهورها على المسلمين أنفسهم، فقد طالما أسلم المنتصرون، واهتدوا بهدي المسلمين. وإنما تقهرها الآفات التي تصيب نسيجها الذي نسجت منه، وهو فضائل دينها، فتعجز عن المقاومة وربما عن مجرد البقاء!

* * *

ورفع الإمام أحمد في حياته (١٦٠ – ٢٤١) راية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وقاوم "بدعة" خلق القرآن وتناقلت الأجيال قوله (هذا زمان مبادرة، هذا زمان من عمل)، ليعلم المسلمين أن كل زمان إنما هو زمان مبادرة وزمان عمل، وليس العلم فيه إلا طريقًا أو قريبًا

للعمل [١٠] وقدّم في سبيل ذلك عنقه لسيف المأمون وهو ينتظره شاهرًا سيفه ليقتله بيده فحملوه إلى القتل آلاف الأميال، مقيدًا في الحديد، فتقل الله المأمون وأحيا الإمام!

ودخلت عليه سنة بعد سنة وهو سجين ينتظر القتل بيد المعتصم، فأنزل به من العذاب على العقابين ما يتناقله التاريخ، ومزقت السياط جسده، فلم يطلقوه إلا بعد أن فقد وعيه!

ولما خرج من السجن لم يتهاون مع الذين تهاونوا، لكيلا يعرف عنه تساهل مع من تساهل في "البدعة" وإن كان أقرب المسلمين إلى قلبه.

دخل عليه يحيى بن معين [١١] يعوده إذ مرض، وكان قد قال بخلق القرآن تقيةً – فازور المريض عن زائره وجهه كي لا يراه أو يحدثه. فتكلم يحيى عن الإكراه الذي يأذن للمكره أن يتقي الأذى بقول لا يعتقد صحته، وأشار إلى حديث عمار (بإباحة القول تقية)، فتابع الإمام ازوراره، وخرج يحيى، فقعد بالباب منكسر النفس، ويحيى من أكابر المحدثين في التاريخ الإسلامي – حتى إذا خرج إليه أبو بكر المروزي تلميذ أحمد وخادمه سأله: ماذا قال أحمد بعدي؟ فأجاب أبو بكر: قال (يحتج بحديث عمار – مررت وهم يسبونك فنهيتهم فضربوني) وأنتم قيل لكم: (نريد أن نضربكم).

يقصد أن الأذى لم يقع في حين أنه وقع بالفعل في حديث عمار، فالاحتجاج بالحديث حجة داحضة.

---

(١٠) ولد أحمد في عهد خلافة المهدي الذي كتب إليه سفيان الثوري يقول: (ثم أقعدت أجنادك الظلمة دون بابك وسترك. يظلمون الناس ولا ينصفون، ويشربون الخمر ولا يجدون الشارب، ويزنون ولا يجلدونا لزني، ويسرقون ولا يقطعون يد السارق!).

وكان حكم المهدي مع هذا – من أصلح الحكم في الدولة العباسية نسبيًا – دينًا ودنيا. ومن بعده تتابع الانحدار في الدفاع عن الدين والاتساع في طلب الدنيا. وانقطع حساب الزادقة وألغي الديوان الذي أنشأه لمعاقبتهم.

(١١) صحب يحيى أحمد عظم حياته ورحل معه في عهد الطلب حتى صار علمًا في علوم الحديث وكتبه مراجع أصلية فيها، وكان أبوه من كبار عمال الدولة، خلف له خمسين ألف درهم أنفقها في سبيل العلم، وتزهد، وهو يقول: (أراد الله منا أن نكون مثل أحمد، والله ما نقوى على ما يقوى عليه أحمد ولا على طريقة أحمد). ويقول: (إن الثناء على أبي عبد الله من أطيب مجالس الذكر) وأحمد يقول في علمه: (كل حديث لا يعرفه يحيى بن معين فهو ليس بحديث) ولا يناديه باسمه بل يقول له: (يا أبا زكريا) فلقد كان يكبر أحمد سبع سنين.

قال يحيى: مر يا أحمد غفر الله لك، فما رأيت تحت أديم السماء أفقه في دين الله منك[١٢].

وعلَّم أحمدُ المسلمين درسًا خالدًا في الأمر بالمعروف والتصدي "للبدع" علا به اسم الحنابلة بعده، وارتفعت أصواتهم متشددة في كل بدعة، فنسب التشدد في الدين إلى الحنبلية. وما هي إلا الحنيفية السمحة كلما انتهكت حرمة لله كانت لها غضبتها.

والحنيفية يسر كلها، ما خير صاحبها عليه الصلاة والسلام بين أمرين أحدهما أيسر إلا اختار ما هو أيسر، لكنها تجعل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فرض عين على الجماعة، إذا لم تقم به أثمت كلها، لتتضامن في الفضيلة. فيتعدد المكلفون ويتيقظ المنقذون وتتنوع الوسائل ويتضافر الآمرون بالمعروف وييسر الإصلاح.

وحق إبداء الرأي أو حرية الرأي منصوص عليه في القرآن والسنة في صورة "واجب" على الحكام والمحكومين في غير موضع، ومن أظهرها إيجابه تعالى على رسلوه أن يستشير وإن أخطأ المستشارون حيث يقول: (فاعف عنهم واستغفر لهم وشاورهم في الأمر).

والله تعالى يقول: ﴿**يأيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم، فإن تنازعتم في شيء فردّوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر**﴾. فالطاعة له والرسول فريضة محكمة. ولا طاعة لمخلوق في معصية الخالق.

وليس للفرد أن يسكت عن إبداء رأيه، فهو بعض الأمر بالمعروف المفروض عليه. وهذا "الحق" أو "الواجب" أحد المسلمات في الإسلام قبل أن يعرفه الفرنجة بألف وثلثمائة عام في نظمهم البرلمانية [١٣]. يقول عمر: (لا خير فيكم إن لم تقولوها ولا خير فينا إن لم نسمعها).

---

(١٢) فصلنا الكلام في محنة خلق القرآن في كتابنا أحمد بن حنبل إمام أهل السنة طبعة دار المعارف في الباب الخامس ص ٣٣٣ إلى ٤١٤.

(١٣) لم يصل الأوربيون إلى هذا الحق إلا بعد إقامة النظام النيابي، في القرن الثامن عشر للميلاد والثالث عشر للهجرة وفي ذلك الكلمة التي يرددها الأحرار عن جون ستيوارت مل: (لو كان للناس جميعًا – إلا واحدًا منهم – رأى. وكان لهذا الواحد رأي مخالف – لم يكن للناس جميعًا حق في إسكات صوت ذلك الواحد، كمثل ما إنه ليس لهذا الواحد – إذا كانت السلطة في يده – أن يسكت أصوات الناس جميعًا).

والحكم للدين. فإذا أساغت الجماعة المنكر وإن سكتت عن إنكاره أو تقاعست عن إبداء رأيها لم تعد هي "الجماعة" ولم تكن لها الطاعة.

يقول ابن مسعود: (الحق ما وافق الجماعة وإن كنت وحدك) ويجلبه قول نعيم بن حماد (إذا فسدت الجماعة فعليك بما كانت عليه الجماعة وإن كنت وحدك) ولما وقف أحمد بن حنبل موقفه الخالد في وجه المأمون كان أحمد – لا خليفة المسلمين ولا الكثرة التي تبادرت إلى مرضاته – ممثلاً لجماعة المسلمين لأن الحق كان معه.

وفي موقف أحمد يقول ابن قيم الجوزية بعد قرون خمسة: (لقد شذ الناس "كلهم" إلا نفرًا يسيرًا زمن أحمد كانوا هم الجماعة).

ومن نقائص الجماعة في عهد أحمد بن حنبل ومواقفه منها تتشكل صورة مصغرة لما سوف ينجم في المجتمع من بدع تزداد تفاقمًا قدر ما يزداد التخلف.

وأحمد يروي عن رسول الله ﷺ: (كل محدثة بدعة. وكل بدعة ضلالة)، ويروي عنه: (من أحدث في ينا ما ليس منه فهو رد).

ولم يرو أحمد حديثًا إلا عمل به، فحياته درس في دفع البدع وسد الذرائع.

البدع

البدعة شيء يشبه أن يكون من الدين وهو ليس منه، سواء أكان بالصورة أم بالحقيقة في الشكل أم في الموضوع. وهي محرمة أو مكروهة وفق ما تحدثه من بلبلة، وقدر قوة شبهها بالأصول وضعفها، والمكروه منها يجب العدول عنه سدًا للذريعة.

وكثيرًا ما توجد البدعة في كيفيات بعض المندوبات وما تميل إليه الأنفس كالذكر والتلاوة بما يدخل عليها البعضُ من كيفيات سلوكية على نحو ما يصنع بعض المنتسين للطرق ليروجوا طرائقهم.

ولا مراء في أن الفيصل بين الأصل والبدعة هو عمل السف بالأصل ومتابعة الخلف له، والسلف هم علماء أصول السنة والعاملون بها أعظم العمل، والقرون – الأجيال – الثلاثة الأولى خير القرون، أولها قرن الرسول. و(رسول الله ﷺ – كما يقول الإمام أحمد – هو المعبر عن كتاب الله الدال على معانيه. شاهده في ذلك أصحابه الذين ارتضاهم لنبيه واصطفاهم له، فكانوا أعلم الناس برسول الله ﷺ وبما أراد الله من كتابه بمشاهدتهم) وشاهدهم وتعلم عليهم التابعون لهم بإحسان وتابعوهم.

ومن المذاهب ما يعتبر عمل أهل المدينة وعملهم أصلاً في أصوله أو يعتبر لإجماعهم القوة لمكانة "السابقة" في الإثبات. والأمر آكد في الإثبات إذا تواتر وعم واستمر عليه العمل.

أما ما لم يفعله السلف – مع ثبوت أصله – فالرأي من قول مالك وقول مدرسة أبي حنيفة أنهم لم يفعلوه لأمر ثبت عندهم، وهم أحرص الناس على الخير وأعلمهم بالسنة.

رأى ابن مسعود – معلم الكوفة – قومًا يجتمعون بعد العشاء ويذكرون الله جماعة رافعين بالذكر أصواتهم فقال لهم: (يا لله! لقد جئتم "ببدعة" ظلماء، أو لقد فقتم أصحاب محمد علما).

والشافعية يرون أن كل ماله مستند من الشرع فليس ببدعة وإن لم يعمل به السلف، فقد يرجع تركهم له إلى أسباب محلية أو وقتية أو لإيثار ما هو خير منه، أو لعله لم يبلغهم جميعًا.

ومن ذلك يختلفون في الذكر جهرًا أو جماعة، وفي الدعاء كذلك. وحجة الشافعي أنه قد ورد الترغيب في أصله، وإن لم يرد عن السلف فعله، فالحجة عنده أن الشرع يدعو إلى القيام بالأمر وإن لم يبين طريق القيام به، فهو مباح.

ومن البدع ما يكفر صاحبه ومنها ما يكتفي بتبديعه، ومنها ما هو صريح، وهو ما ليس له أصل شرعي في مقابلة أمر ثابت شرعًا واجب أو مندوب، فالبدعة عندئذ تميت سنة ثبتت، أي تحارب حقيقة إسلامية، مثل إدعاء قوم أن بعضًا يعرف الغيب استنادًا إلى الفراسة.

ومن البدع ما هو محل خلاف، فالانتهاء عنه أنجح للمرء وأنفع للجماعة.

وخطر البدع كبير لتسربها في المجتمع الرخو الهشيش، وكثيرًا ما انتهت بأفراده أو جماعته إلى قبول ممارسات تناقض الدين، أو معتقدات زيوف يصطنعها بعض للتظاهر أو السيطرة!

والصغير من البدع يؤدي إلى الكبير. وكثيرًا ما تعاظمت الصغائر وتعددت وتنوعت، فصار لها خطر الكبائر، وقل أن يُقدم الفرد أو المجتمع على الكبيرة بغتة دون أن تمهد السوابق الصغيرة أو الشائعة لذلك الهجوم. فما بالك بالبدع التي تعم بها البلوى وتشوه وجه المجتمع، ويتعين العدول عنها إبقاء على سلامة العقيدة وسلوك الأفراد.

وكثيرًا ما يكون المنكر الصغير خروجًا على واجب واحد، لكن فيه تهوينًا أو تحريضًا للخروج على واجبات كثيرة.

والإبعاد من الجادة إذ يبدأ بخطوة واحدة يزداد قدر ما يزداد الانحراف. ومن القطرات بدايات السيل العرم.

ومن ذلك تشدد الأئمة لإتباع الأصل، لأنه الدليل الشرعي.

* * *

أحمد رضي الله عنه لا تعجبه الصلاة في جلود الثعالب.

ولا يتزيا بزي النساك، فلم يلبس الخرق، بل كان يأتزر ويعتم فوق القلنسوة. وليس ثوبه غليظًا ولا رقيقًا ينكر، وكان في غاية النظافة.

ولا يرى أحمد شد الرحال لزيارة القبور.

ولا يرى بناء القبور مرتفعة بل يقول (مثل قبور أحد).

وسئل عن القراءة على القبور: هل يحفظ فيها شيئًا؟ قال لا. وإن كان الشافعي لا يرى بها بأسًا، وكذلك إبراهيم النخعي.

ولا يرضى أحمد عن سياحة الطوافين بالبلاد يظهرون النسك بأسمالهم البالية.

فإذا نسبت إليه كرامة (بالمعنى الغيبي) هاج وماج:

ففي ذات يوم مسح تلميذه على يده ثم مسح على بدنه (بدن التلميذ)، فنظر إليه مغضبًا غضبًا شديدًا، وجعل ينفض نفسه ويقول: عمن أخذتم هذا؟

ولما طلب إليه رجل أن يدعو لأمه – وهي زمنة– أجاب مغضبًا: نحن أحوج إلى أن تدعو لنا.

وهجر الحارث بن أسد المحاسبي (٢٤٣) وهو شيخ كثير من المتصوفة. كان يعقد مجالس للذكر في داره ودور أصحابه، فسمع أحمد بها، فطلب أن يراهم من حيث لا يرونه، فلما رآهم كان على رءوسهم الطير، ومنهم من يبكي، ومنهم من يزعق – بكى أحمد في مخبئه وغشى عليه من البكاء. فلما انفض المجلس قال لصاحبه: ما أعلم أني رأيت مثل هؤلاء القوم، ولا سمعت في علم الحقائق مثل كلام هذا الرجل.

وأضاف إمام المسلمين: ولا أرى لك صحبتهم.

وأحمد ينهي عن التهليل ورفع الصوت بالقراءة، ويعتبر ذلك بدعة محدثة. وكان الشافعي من قبل يقول: (تركت شيئًا بالعراق يقال له التغبير أحدثه الزنادقة يصدون به عن القرآن).

وصلى أحمد خلف إمام يجمع ثوبه إذا سجد بيده اليسرى، فلم يقل له شيئًا، ولكن قال لصاحب بجواره: (قال النبي ﷺ: إذا قام أحدكم في الصلاة فلا يكف شعرًا ولا ثوبًا). ومضى.

وسأل الرجل صاحب أحمد عما قال له، فأخبره وأردف قائلاً: ما أحسب المعنى إلا لك!

وأحمد في هذا كالحسن البصري دُعِيَ إلى عرس فجيء بجام من فضة فيه طعام، فتناول الطعام فقلبه على رغيف فأصاب منه. فهذا نهى في سكون عن استعمال آنية الفضة.

وما هو إلا منهج النبي عليه الصلاة والسلام، إذ كثيرًا ما أصدر أمره بطريقة غير مباشرة، كما يقول للناس: (أقيلوا ذوي الهيئة عثراتهم).

وأم الدرداء تقول – وكانت من العلماء – من وعظ أخاه سرًا فقد زانه، ومن وعظه علانية فقد شانه.

وآفة النصح أن يكون جهارًا.

ويقول أحمد: النياحة من فعل الجاهلية.

ولما سئل عن الرجل يدخل ليغسل الميت، فيسمع صوت النوح: أيدخل ليغسله وهم ينوحون؟ فأجاب: نعم، ولكن ينهاهم.

وسأله تلميذه حرب بن إسماعيل: الرجل يسمع النوح فيترفق. قال: "ما أدري" وروى حديث سعيد بن صالح: رأيت أبا وائل [١٤] يستمع النوح ويبكي.

* * *

وإذا جاز للمسلم أن يقاتل الكفار حتى يقتل جاز له ذلك أيضًا في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ومن ذلك قول الغزالي: إنه يستحب له أن يعرض نفسه للضرب بل القتل إذا كان لفعله تأثير في رفع المنكر أو كسر لجاه الفاسق أو تقوية لقلوب أهل الدين.

روى أبو بكر المروزي – تلميذ أحمد وخادمه – أنه ذكر ابن مروان الذي صلب في الأمر بالمعروف، فترحم عليه وقال: قد قضى ما عليه.

لكن الموعظة الحسنة للسلطان تقتضي اختيار الزمان والمكان والأسلوب والرجل. كان المهدي أكثر بني العباس يسرًا وورعًا وأشدهم على أعداء الدين بأسًا، وفي إحدى حجاته طلب أن يخلي له المطاف حين طوافه بالكعبة، فمنعه من ذلك المحتسب، فخضع له، في جوار الكعبة، ثم حبسه وحبس معه فرسًا شموسًا حتى قتله الفرس!

ولقد وعظ سفيان الثوري أبا جعفر المنصور في مواجهته حتى أوصاه حاجبه بقتله، وكان مع ذلك يوصي الآخرين بالحكمة ويخشى أن يسدر السلطان في غيه. ولقد يكون السلطان ميئوسًا منه.

سأله سائل ألا تأتي السلطان فتأمره؟ فأجاب إذا انبثق البحر فمن يسكره [١٥]!

---

(١٤) جد سفيان الثوري وكان من خيار زمانه زهادة وعبادة.

والمؤمن ينتصر لله لا لنفسه إذ يغظ غيره، فالانتصار لله تعبد، والانتصار للنفس حب للمحمدة أو خوف للمذمة أو عجب بالذات أو شهوة للشهرة، وهكذا كله غير محمود؛ لأن الإرادة فيه لم تتمحض لله وحده. وإذا وجد شرك خفي في العمل بطل [١٦].

وأحمد يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ويتحمل مسئولية الأمر، ويخاف على الناس ويوجب الستر عليهم، ولا يشترك السلطان إلا في الشدائد، ويؤثر الاستعانة بالجماعة: كل أولئك في مزاج موفق بين سياسة الناس في دنياهم وجمع كلمتهم على استنكار المنكر.

واستخدام السلطان محظرة لابتداره بالبطش في مواقع كثيرة قد يكون للمنطق فيها موضع.

والسلطان مُسلط عليه الكثير من فوقه، ومغلوب على أمره بكثيرين تحته، وبعوامل شتى منها الشهوة والصولة والاستعلاء؛ فالاستعانة به لا تؤمن مغبتها، وقد يكون سكوته إذ يُستعدى سببًا، في سوء فهم العامة أو تمكينًا للضلال بالسلطة، وفي الاستعانة بالسلطان تبليغ عن المنكر تمتنع بعده الشفاعة وتعلن الفضيحة. وكثيرًا ما كانت دِرَّة السلطان قاتلة، وكانت فضيحة الآثم مدعاة ليتولى كبره فيتردى في وزره، وكان أخذه باليسر أنجح للنصحاء وأفلح المنتصح.

---

(١٥) يسده.

(١٦) روى أحمد أن رجلاً جاء إلى رسول الله عليه الصلاة والسلام فقال له: أرأيت رجلاً غزا يلتمس الأجر والذكر ماله؟ فاقل عليه الصلاة والسلام: لا شيء له! فأعادها ثلاث مرات يقول له الرسول لا شيء له. بم قال: (إن الله لا يقبل من العمل إلا ما كان خالصًا له).

وسئل عن الرجل يقاتل من أجل أخيه حمية وعن رجل يقاتل لا يدفعه للقتال إلا الشجاعة والمروءة، وعن رجل يقاتل للرياء والتظاهر! فقال ﷺ: (من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله).

ويروى عنه ﷺ: (أن أول الناس يقضي عليه يوم القيامة رجل استشهد، فأتى به فعرفه نعمه فعرفها، قال فما علمت فيها؟ قال: قتلت فيك حتى استشهدت قال: كذبت، ولكنك قاتلت لأن يقال جرئ فقد قبل. بم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقى في النار).

وروى مالك أن رسول الله ﷺ جاء يعود عبد الله بن ثابت فوجده قد غلب عليه، فصاح به فلم يجبه، فاسترجع رسول الله ﷺ وقال: (غلبنا عليك يا أبا الربع) فقالت ابنته: والله إني كنت أرجو أن تكون شهيدًا فإنك قد قضيت جهازك، فقال رسول الله ﷺ: (إن الله قد أوقع أجر، على قدر نيته).

سئل أحمد عن جار يرى منه الفسق والدعارة: أيرفعه إلى السلطان؟ قال: إن علمت أنه يقيم الحد فارفعه. ونبه على أن الأمر جد فأضاف: "كان لنا جار فرفع إلى السلطان. كان قد تأذى منه جيرانه، فرفعوه فضربوه ثلاثين دره فمات".

ووضع السيف في موضع الندى مضر كوضع الندى موضعه: سأله تلميذه يعقوب بن يختان عن القوم يؤذونه بالغناء فأجاب: تقدم إليهم وانههم وأجمع عليهم قال يعقوب: أأستعين بالسلطان؟ فأجاب الإمام: لا. قال يعقوب: فأدع الصلاة؟ قال الإمام "لا تضيع المسجد"

فهو ينتهي بالمسجد ويبدأ الفتيا بعدم الالتجاء إلى السلطان أخذًا لكل شيء بقدره. ويرى أن يجمع الناس ليروا المنكر ويشتركوا في إنكاره ويصلحوا الفساد وهم أجمعون، فيصلحون ويُصلحون [١٧].

---

(١٧) وسأله سائل. إذا أمرت بالمعروف فلم ينته فماذا أصنع؟ قال: فدعه، قد أمرته. وقد أنكرت عنه بلسانك وجوارحك. لا تخرج إلى غير، ولا ترفعه إلى السلطان يتعدى عليه.

كان أصحاب عبد الله: إذا تلاحى قوم قالوا: مهلاً باراك الله فيكم. مهلاً بارك الله فيكم.

ويقول أحمد في موضع آخر: أما السلطان فلا. إذا رفعهم إلى السلطان خرج الأر من يده، أما علمت وصية عقبة بن عامر؟

أما أصحاب عبد الله فأصحاب ابن مسعود حاجب النبي ﷺ سادس الستة الأولين في الإسلام، وإليه ترجع مدرسة الكوفة التي نتجت أبا حنيفة.

وأما عقبة بن عامر فصحابي وَلِيَ مصر لمعاوية سنوات. وهو القائل إذ أخبر، رجل أن لهم جيرانًا يشربون الخمر وأنه داع لهم الشرطة ليأخذوهم. (لا تفعل، ولكن عظهم وتهددهم) ففعل فلم ينتهوا، فعاد إليه يريد تبليغ الشرطة فقال عقبة: ويحك! لا تفعل؛ فإني سمعت رسول الله يقول: (من ستر مؤمنًا فكأنما استحيا موءودة من قبرها).

وشكا رجل إلى أحمد جارًا يؤذيه بمنكر، فقال له: مر، بينك وبينه؛ قال: أمرته مرارًا وكأنه يضحك! قال الإمام: وأي شيء عليك؛ إنما هو يضحك على نفسه! أنكر بقلبك ودعه.

وإذا لم يقو امرؤ على الإنكار على صاحب السطوة وقوى على الإنكار على ضعيف فعليه ألا يسوي بين الاثنين، فيترك الإنكار على الضعيف من أجل ضعفه: أي عليه أن ينكر على من يقدر على رده على المنكر وإلا أصبح الضعف قوة تأذن بارتكاب المنكر واختلقت قوة المبطل حجة على إجاز: الباطل! يقول أحمد: ينكر على الذي يقوى أن ينكر عليه.

سئل أحمد عن بيع اليهودي والنصراني الخمر ظاهرًا: فهل على المسلم شيء؟ فقال: إذا كان ذلك من السلطان فليس يتعرض هز.

وإذا أعلن الفاسق فسقه أو أخطأ خاطئ في العبادة، فلا وجه للصبر عليه. كانت لأحمد مساكن يؤجرها فبغله بين المغرب والعشاء عن ساكن له أنه طلق امرأته، وأنها تقيم معه، فخرج إليه وصاح به: تطلق وتقيم؟ وأمره أن يتحول عنه وقال: انتقل.

وصلى أحمد جنب رجل لا يتم الركوع ولا السجود فقال: يا هذا، أقم صلبك في الركوع والسجود وأحسن صلاتك.

وسئل عن رجل يضرب الطنبور والطبل أو نحو ذلك: أيوجب أن يغير؟ قال: أوجب.. إن غير فله فضل؛ فسئل فيرفع إلى السلطان؟ قال: تخافه؟ قال: نعم؛ قال: أنكره بقلبك. وليعلم الله ذلك منك. روى ذلك عن عبد الله بن مسعود.

فإذا انكشف المنكر فلا حرمة له: يقول أحمد: لا يمر بالخمر مكشوفًا. قي له: فإذا كان مغطى؟ قال: لا تتعرض له إذا كان مغطى.

سئل عن الرجل يرى القنينة (يظن) أن فيها مسكرًا؟ فقال: دعه [١٨] وسأله أبو بكر المروزي – لو رأيت الخمر مشكوفًا في قنينة أو قربة ترى أن تكسر أو تصب؟ قال: تكسر.

قيل: فإذا رأى مسلمًا قد حمل شيئًا منه؟ قال: المسلم يعظه. فإن أبي أهرقه.

وأكثر الناس قادرون في أكثر الظروف على الإنكار على أكثر المنحرفين، والنهي عن المنكر يشد ظهور المؤمنين – وما أحوجهم إلى شد ظهورهم – وبرغم أنف المنافقين. وهم كثر.

يقول أحمد في عصر، وشتان ما عصر، والعصور بعده، إذا رأيتم اليوم شيئًا مستويًا فتعجبوا!

ويقول: يأتي على الناس زمان يكون المؤمن فيه بينهم كالجيفة، ويكون المنافق يُشار إليه بالأصابع! فقيل له: كيف يشار إلى المنافق بالأصابع؟ فقال: صيروا الأمر فضولاً: المؤمن إذا رأى أمرًا بالمعروف أو نهيًا عن المنكر لم يصبر حتى يأمر وينهى. يعني قالوا هذا فضول! والمنافق كل شيء يراه قال بيده على فمه (وضعها على فمه علامة على الصمت)، فقالوا: نعم الرجل! وإذا كان للمعروف دائمًا موضع فالأمر به يحتاج إلى كيس الكيس، أو دهاء الدهى. ومن الناس من ختم الله على قلوبهم وألقى الغشاوة على أبصارهم. ومن الناس من لا ينفع النصح فيهم.

وقديمًا قال يحيى بن كثير: موعظة الجاهل كالمغنى عند رأس الميت!

(١٨) دخل أحمد ويحيى بن معين وأبو خيثمة دار خلف بن هشام البزار يطلبون حديثه. وهو من كبار المحدثين وله قراءة اختص بها، لكنه كان يشرب النبيذ – آخذًا أخذ من أباحه من العراقيين كالشعبي والنخعي وأبي حنيفة وإن لم ينتبذ منهم أحد قط – فوجدوا بين يدي خلف قنينة نبيذ. وأقبل أحمد يسأله، وحول ظهر، إلى القنينة. حتى إذا أزمعوا الانصراف سأله خلف: يا أبا عبد الله، أي شيء تقول في هذا؟ – يقصد القنينة –

وسأله عن الطنبور إذا كان مغطى؟ فأجاب: إذا ستر عنك فلا.

يقول أحمد لمن سأله: وإن كان العود من وراء الثوب وهو يصفه أو يبنيه؟ لا إذا كان مغطى فلا أرى له ذلك.

ومن مجموع النصوص والآثار يمكن الترخيص في الغناء في العرس والعيد غناء الرجولة أو المناسبة الصالحة الذي لا يترنم الفساق بمثله:

أخرج النسائي عن عامر بن سعد: دخلت على قرظة بن كعب وأبي مسعود الأنصاري في عرس وإذا جوار يغنين فقلت: أي صاحبي رسول الله ﷺ وأهل بدر يُفعل هذا عندهم؟ فقالا: اجلس فاسمع معنا، وإن شئت فاذهب، فإنه قد رخص لنا في اللهو عند العرس.

وفي تحريم غناء النساء قال الرسول (لا تشتروا الفتيات ولا تبيعوهن ولا خير في تجارتهن وثمنهن حرام) وفي مثل ذلك نزلت (ومن الناس من يشترى لهو الحديث...) [١٩].

وأحمد يرى أن الجارية التي تقرأ القرآن بالألحان إذا بيعت بيعة ساذجة: أي ليس لها هذه الخصيصة.

وسئل عن قراءة القرآن بالألحان فكرهها وقال: "ما يعجبني. هو محدث" وقال "بدعة" لا يسمع. وأنكر الأحاديث التي يحتج بها في القراءة بالألحان.

أما حديث (ليس منا من لم يتغن بالقرآن) فقيل في معنى (يتغنى) قول سفيان بن عيينه (يستغني) وقال الشافعي: (إنما هو يتحزن ويترنم ويقرؤه حدرًا (دون تمطيط)، وتحرينا. وبعض يقول: إن رفع الصوت بالقرآن هو التغني به.

قال أحمد: ليس ذلك إلي، ذلك إليك! قال خلف. كيف؟ قال أحمد: قال النبي ﷺ: كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته والرجل راع في منزله ومسئول عما فيه، وليس للخارج أن يغير على الداخل شيئًا.

ولما خرجوا سكب خلف خابيتين، وعاهد الله على ألا يذوقه حتى يعرض على الله عز وجل.

وتوثيق أحمد لخلف شراب أم لم يشرب – قبل مناب خلف أم بعده – مظهر لاحترام الاجتهاد والاختلاف فيما هو محل للخلاف. يقول حاتم الأصم من فقهاء المعتزلة وعلماء المتصوفين: (حادثت أحمد فيمن شرب النبيذ من أهل الكوفة؛ فقال: (هذه زلات لا تسقط عدالتهم)، وإنما قصد أحمد أنها زلات رأى لا سقطات في الدين.

(١٩)

وأي هذا كان يتعين ألا تخرج طريقة الأمر بالمعروف عن المعروف. والله يقول (ولا تجسسوا).

* * *

فالمحتسبة لا يتسلقون الحيطان ولا يتجسسون مهما عظم المنكر إذا كان خاصًا كالزنى والخمر، فلا يجوز التجسس على ما خفى من هذه القاذورات، أن ضررها مقصور على أصحابها. ومن ذلك قول أحمد بن حنبل (ما غاب فلا تفتش) وإنما يجوز التجسس فيما يتصل بحياة المسلمين كغش الدواء والشراب والطعام والتآمر للقتل.

لم يكد الإمام يقضي نحبه حتى أصبحت الحنبلية – شعارًا للتمسك بالدين ومقاومة البدع وشجرت الفتن بن الحنابلة وبين الآخرين، فشكاهم صاحب الخبر إلى الخليفة. فكتب المتوكل إلى صاحب الخبر: (لا ترفع إلي شيئًا من أخبارهم، وشد على أيديهم، فإنهم وصاحبهم من سادة أهل محمد! وقد عرف الله لأحمد وبلاءه ورفع علمه أيام حياته وبعد موته، وأنا أظن أن الله تعالى يعطي أحمد ثواب الصديقين).

وعمرت المساجد بالجمع والجماعات، واختفى المفطرون في رمضان، وتحجبت السافرات وامتنعت نياحة النائحات، وانقطع مشي الرجال والنساء في الطرقات. وحمل أصحاب أحمد على البدع وبخاصة من يدعون دعاوي الصوفية. وشغب علام خليل (٢٧٥) عليهم العامة فاتهمتهم بالزندقة، وسعى عند والدة الخليفة حتى سجن سبعون رجلاً منهم وهرب بعضهم وحوكم بعض آخر وقضى القاضي ببراءتهم.

وفي القرن كان علي بن خلف البربهاوي (٣٢٩) شيخ الحنابلة، ولما مات أمر الخليفة بدفنه إلى جواره.

يقول ابن الأثير في حوادث سنة ٣٢٢ (عظم أمر الحنابلة وقويت شوكتهم وصاروا يكسبون دور القواد والعامة، وإن وجدوا نبيذًا أراقوه، وإن وجدوا مغنية ضربوها وكسروا آلة الغناء واعترضوا في البيع والشراء ومشى الرجل مع النساء والصبيان. فإذا رأوا ذلك سألوه عن الذي معه. من هو، فإن أخبرهم وإلا ضربوه وحملوه إلى صاحب الشرطة وشهدوا عليه بالفاحشة. فأرهجوا بغداد).

والسلطة غيور لا تقبل الشركة، وواجبها ألا تأخذ الناس بالظنة، وبهذا وقعت الوقيعة بين الخلافة والحنابلة فأصدر الخليفة الراضي توقيعًا عنيفًا يقرأ عليهم، وركب صاحب الشرطة ونادى في الناس: لا يجتمع من الحنابلة اثنان. لكن الحنابلة ظلوا على طريقتهم.

وأمسى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والحفاظ على منهج السلف في التعبد والسلوك ومقاومة البدع تراثًا للمذهب.

وسنرى بعد، أنهم كانوا على حق في معالجة البجدع بالردع كي لا يستفحل خطرها فيما بعد. والبدعة جرثومة تتكاثر. فلا يقتصر أذاها على العامة وإنما يتعداهم إلى الخاصة. وينتقل من السقطى إلى فضلاء، ومن الضعفة إلى أقوياء.

obeikandi.com